قبل أن تتكسّر الأحلام

بقلم: عربي حر

لقد فاجأتْ حربُ «الأعين» إسرائيل ـ وربما فاجأتنا جميعًا كذلك: ففي عين عريك سقط ستةُ جنود؛ وفي عيون الحرامية سقط عشرة جنود ومستوطنان. بدا فجأةً وكأنّ أعين فلسطين تدفقتْ بطولاتٍ قلّ نظيرُها في العقديْن الأخيريْن. حتى حزبُ الله ـ المثال، بل الحلم ـ لم يتمكّنْ من قتل هذا العدد من الجنود بإمكانيّات بدائيّة كتلك التي في يد الفلسطينيّين. إذًا، هناك صحوة، عودة، بداية جديدة، نهاية سعيدة، انتصارٌ للأصالة على الانحراف السياسيّ الذي دام عقْدًا، انطلاقةٌ أخرى للمقاومة. حتى أقلُّ الناس ثقةً بالسلطة الفلسطينيّة رأوا الهجمات المسلّحةَ الأخيرةَ تغييرًا حقيقيّاً في النهج.

ولكنْ رغم البطولة الحقيقيّة التي تجسدتْ في «الأعين» الفلسطينيّة، فإنّني لم أرَ البداية ـ الصحوة، بل شعرتُ بالطفرة ـ الخديعة. إنّها، في أحسن الأحوال، طفرةٌ، أو محاولةٌ يائسةٌ لتنجيد المقعد قبل الجلوس على طاولة التفاوض. وهي، في أسوإ الأحوال، خديعةٌ شريرةٌ تتلاعب بمشاعر الشعب، تمامًا كالقاتل الذي يُمْهل ضحيتَه فترةَ استراحة فيسترخي حذرُ هذا الأخير وتلين دفاعاتُه، لينقضّ القاتلُ فجأةً وليتمّ جريمتَه.

قبل حرب الخليج، أو «أم الهزائم،» رُفعت المعنوياتُ العربيّةُ والفلسطينيّةُ برافعات أجنبية ومحليّة حتى لامست السماءَ. وحين انقشع الغبارُ تكشّفت العوراتُ، وتبيّن مدى الإمعان في الكذب والتلاعب حتى بالأحلام. فسقطت الروحُ المعنويةُ سقوطًا فاجعًا، وتسللت الهزيمةُ، وانتشر اليأسُ، وصعد كيسنجر باسمًا كمن كان يَعْرف مسبّقًا متى سيُسدل الستارُ، وكيف سيُقتل البطلُ في المشهد الأخير. والنتيجة الأعظم لأم الهزائم تلك كانت وثيقةَ استسلامٍ وقّعها في أوسلو المنتصرون من جهة، والطامحون إلى لعب دور حرّاسٍ لأولئك المنتصرين من جهة أخرى.

لم يكن الفلسطينيُّون، والعربُ عامةً، ليوافقوا على تلك المهزلة لولا هزيمةُ أحلامهم وتكسيرُ معنوياتهم دون رحمة. فمعنويّاتُ الشعوب كلما ارتفعتْ زادت احتمالاتُ تحطُّمِها وتفتُّتِها عندما تَسْقط، ولاسيّما حين تَسقط «كجلمود صخرٍ حطّه السيلُ من علِ.» فأحلامُ الشعوب، حين تطفو على سطح إنجازاتها، تَصْعد مع تصاعد الأخيرة بشكل طبيعيّ وسلس. أما عندما تُفْصل عن مائها وتُرْفع عن عمد فوق قمم الجبال فتفقد القدرةَ على التواصل أو التماسّ مع سطح الماء الجاري في العيون، فإنّ مَنْ رَفَعَها سيتحكّم عندها بمصيرها تمامًا. وعندما يأتي الوقتُ الملائمُ يُسْقِطها ذاك الذي رَفَعَها، لترتطمَ بعنفٍ على صخور الواقع التي لم تكن ظاهرةً من فوق، من السماء، فتتكسّر.

إنّ شعبًا ثائرًا لا يَرْضخ إلا لنفسه، لجزء منه، لقيادته إذا خانته ... وهم يدركون ذلك.

إذًا، «الأعين» تتكحّل استعدادًا للاغتصاب الأخير، لا للفرح. والأب يجهّز ابنتَه لجريمة البيع، دون علْمها، ليقبضَ فُتاتًا يسدّ رمقَه ويوقف عويله. كان الفلسطينيُّون قد بدأوا يرون النورَ يشعّ تمامًا كما شعّ في الجنوب اللبنانيّ، بل أكثر. وأصبح النصرُ «صبرَ ساعة،» كما وعدهم القادةُ الذين «يُعدّون الجنازةَ وانتخابَ المقصلة وأحمدُ العربيُّ يَصْعد كي يرى حيفا» كما يقول محمود درويش. ما لم يقله المرتبطون هو أنّ التاريخ لم يَشْهد انتصارَ شعبٍ دون قيادة، فما بالُكُمْ بشعبٍ تجمّله قيادتُه لتبيعه في سوق النخاسة؟!

أيُّها الأبطال، أبطالُ عين عريك وعيون الحرامية ورفح ورام الله وخان يونس وبيت لحم وبلاطة وطولكرم... معذرة! فنحن جميعًا ننحني أمام عنفوانكم وإرادتكم الفذّة؛ ولكنّ أجراس العودة لن تُقرَعَ هكذا، لأنّ قيادتكم قطعت الحبلَ ودفنت الجرسَ. إنّها تستجدي من الجلاّد أن يخفّف ضربات سوطه قليلاً لتستجمعَ قواها وهيبتَها الموحلة، فتباشرَ في تسليم أو اعتقالِ المطلوبين الذين أعدّ السيّد قائمةً بأسمائهم. تأكّدوا أنّ اسم كلّ واحدٍ منكم موجود على القائمة. وعندما يأتي وقتُ إطعام الحرّاس وجبةً أدسمَ من المعتاد، ستُعتَقَلون أو تُسلَّمُ مخابئكم وتُقتَلون على مذبح «بناء الدولة.»

لن تتراكم بطولاتُكم لتفيضَ الأعينُ ويصعَدَ الحلمُ على قاعدة حقيقيةٍ مستدامة. لن نَقْرع أجراسَنا قبل تنظيفها من طبقة الصدإ

التي تَكْتم جَلْجَلَتها، قبل أن نجد فينا من يَحْمل رؤيانا فنحملَه ونصعَدَ. فمن «يفاوض» القتلةَ أثناء تمثيلهم بجثثنا... مَنْ يبيع لاجئينا مقابلَ بانتوستانات المافيا الفاسدة... مَنْ يَنْعتُ مقاومتَنا بالإرهاب ويَعْتقلُ مناضلينا لإرضاء أسياده الذين لا يَشْبعون... مَنْ يَلْعب بأحلامنا وآلامنا من أجل بضع وكالات تجاريّة لشركات إسرائيليّة وأمريكيّة... مَنْ يسجّل فيديو مرثيةً للمرحومة ليئا رابين ولا يَذْرف دمعةً - وإنْ عن طريق الخطإ - على ضحايا جباليا وطولكرم... مَنْ يَفقد الرؤيةَ ويحيط نفسَه بالمرتزقة ويقطع الصلةَ بشعبه وتطلّعاته... مَنْ يَدْعو إلى سلام الشجعان ولكنّه يحقّق سلامَ الخذلان، سلامَ القبور...

من يَفْعل ذلك كلّه لا يمكن أن يقودنا إلى نصر وحريّة.

أحبّتنا، يا أنبلَ أبناء الأمّة، لا تَسْمحوا للحلم الزائف أن يرفعكم في الهواء. لا تَسْبحوا في السماء. لا تَدَعوا أحدًا يَسْرق أحلامَكُم الأصيلة. إنّكم تستحقّون قيادةً أفضلَ تساعدكم على تحقيق أحلامكم، لا تكسيرها.

القدس

موادّ الأعداد القادمة من الآداب

- مصادرات العقل العربيّ في القرن العشرين (ملفّ)
- من يموّل الثقافة العربيّة؟ (ملفّ)
- الأمبركيّون العرب: تجارب وإبداعات (ملفّ)
- الحركات الإسلاميّة المغربيّة وقضايا الحداثة (ندوة)
- مقابلات: محمد البرغيثي، الطاهر لبيب، لطفيّة الدليمي